بسم الله الرحمن الرحيم
المنصة الرقمية لمدارسة الروايات السودانية
الورشة النقدية رقم (٣)
تجليات الاغتراب النفسي والمكاني
في رواية (الأرض الخراب) للأستاذ: عبد العزيز بركة ساكن.
بقلم: د.عمر عباس الطيب.
السبت ٢٠٢٠/٠٦/٢٧

مقدمة: تعد ظاهرة الاغتراب واضحة جلية في الأدب العربي المعاصر بكافة أجناسه، وسندلف له من خلال هذه الإضاءة عبر باب السرد، وعلى وجه الخصوص من جنس الرواية، فقد نتج عن واقعنا العربي المعاصر سلسلة من الأزمات؛سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو فكرية أو اجتماعية، ساهمت في بلورة تمظهرات الاغتراب للفرد في تلك البيئات، ولعل من أهم تلك العوامل هي الحروب والفقر، فانعكست كل تلك الأزمات على الذات المبدعة؛ التي أعادت تشكيل ذلك الوعي الملتبس وإعادة خلقه عبر الذات المنتجة، إبداعاً سردياً يتماهى مع تلك الذوات المتشظية القلقة،والتي ازادت الهوة بينها وبين واقعها المعاش وتكسرت نصال أحلامها، يقول ابراهيم درغوثي: قلبي مدفون مثل جثة.. إلى متى سيظل فكري في هذه الأرض الخراب؟ خراب حياتي السوداء.. لن تجد بحاراً جديدة فلا سفينة لك.. لا طريق.([1])

توطئة: العمل النقدي كنشاط معرفي انساني قد يتخذ صوراً شتى، بغض النظر عن المنهج الذي ينطلق منه، فقد يكون محاولة لمقاربة النص؛ إضاءةً وتحليلاً وسيكون على الناقد في هذه الحالة تناول النص من نقطة البدء إلى نقطة المنتهى، وقد يكون مقارنة وتحليلاً؛ بمعنى ان يتناول مثلاً جميع روايات الأستاذ عبدالعزيز بركة ساكن ويبين ما يجمعها ضمنا وبناءً، يفكك أجزاءها ثم يجمعها مرة أخرى وفق رؤية نقدية ، وإذا تخلصنا قليلاً من مناهج النقد الأدبي الحديث، التي تجعل العمل الابداعي حقلاً علمياً مقيداً بصرامة، رغم ما تقدمه من إضاءة منضبطة لدلالات النص، وبما أن النقد الأدبي أحياناً يكون احتمالياً أكثر منه منضبطاً، لأنه نشاط ابداعي انساني يتباين من ناقد لآخر، ويتباين أيضاً في استقبال المتلقي له من شخص لآخر، لذ سألج إلى هذا النص من زاوية الاغتراب النفسي والمكاني، الذي هو جوهر العقدة الروائية والمعادل الموضوعي والدلالي في رواية الأرض الخراب لعبد العزيز بركة ساكن، علني أوفق في إضاءة جزء منه، وعل المتلقي يجد فيه تذوقاً جمالياً ودلالياً.

ولعل السؤال الذي سنحاول الإجابة عليه: هل نجحت رواية الأرض الخراب في إبراز تمظهرات الاغتراب النفسي والمكاني لشخوص الرواية من خلال مستويات السرد المختلفة؟

مدخل: تجسيد العنوان والخاتمة للاغتراب في رواية الأرض الخراب:

بما أن العنوان هو العتبة الأولى للنص، وهو من يداعب شغف المتلقي وتحفيزه للغوص في ثنايا المتن، فقد سعى الأستاذ عبدالعزيز بركة ساكن من خلاله إلى

إرباك المتلقي، وإثارة فضوله بأسئلة مشرعة تغزو مناطق إدراكه، لم هي أرض خراب؟ وكيف غدت خراباً؟ إذن هو وسيلة للكشف وإماطة اللثام عن طبيعة النص وارتباط العنوان بمتنه، والأمر الآخر هو سيميائية العنوان وإشارته الدلالية التي تقودنا إلى التناص مع قصيدة الأرض الخراب ل(تي اس اليوت) فهو يوجه ذهن المتلقي أن يؤسس شيء من الوعي مع تلك القصيدة، يقول الكاتب(فلا أدري مدى فداحة الحياة إذا لم أحفظ عن ظهر قلب قصيدة الأرض الخراب ل(تي اس اليوت)، T.S.Eliot أحياناً كنت أظن القدر جمعني بنورا من أجل (تي اس اليوت)(رواية الأرض الخراب)[2].

وفي الخاتمة أمعن الاستاذ عبد العزيز بركة ساكن بأسلوبه المتداخل بين الرواة ، بمزيد من الارباك والتشويق للمتلقي؛ حين يمزج سرد الوقائع على لسان الراوي العليم، وبين الراوي المجهول الذي لا وجود له بين أحضان الرواية، وأحياناً السرد على لسان بعض شخوصه، وهم ينقضون سرد بعضهم البعض ويشككون في صدق الوقائع والأحداث، كل يرويها من زاويته، وهو بذلك يجعل المتلقي شريكاً في نسج خاتمة الرواية،فالكاتب يمسك بتلابيب المتلقي ولا يدعه وشأنه حتى بعد نهايتها، بل يبقى يعبث بعقله وأفكاره، حتى يجد مآلات النهاية التي يشارك في تشكيلها مجدداً، وتطمئن لها أعماقه، بناءاً على ترجيحه للأحداث والوقائع، وما يهمنا هو علاقة الخاتمة بالاغتراب، هل انتحر درويش كترجيح أول؟ وإن فعل ذلك؛فهو بلاشك يرفض الذوبان في تلك الحضارة، حين يتعلق الأمر بتلك المفاهيم التي نشأ عليها وينتمي لها(مفهوم الشرف)عندها يضع حداً لآلامه عله يكون الخلاص،والترجيح الثاني: هل نورا هي من دفعته؟ حينها يبقى رفض الآخر عنواناً لخاتمة الرواية، ويبقى الصراع قائماً بين الشرق والغرب، ويبقى الشرق شرقاً والغرب غرباً .

مصطلح الاغتراب:

الاغتراب لغة: جاء في مختار الصحاح في كلمة (غرب): الغربة: الاغتراب، تقول منه: تغرب واغترب، بمعنى فهو غريب، وغرب أيضاً بضم الغين والراء، والجمع الغرباء، والغرباء أيضاً الأباعد، واغترب فلان إذا تزوج في غير أهله، وفي الحديث الشريف(اغتربوا لا تضووا)[3].

الاغتراب النفسي: يشير هذا المفهوم في علم النفس إلى العلاقات الحياتية لشخص ما مع العالم المحيط، التي يبدو فيها نتاج نشاطه وذاته نفسها وكذلك الأفراد والفئات الاجتماعية الأخرى كنقيض للشخص، وهي مناقضة تتراوح من الاختلاف إلى الرفض والعداء،ويتم التعبير عن ذلك بتجارب انفعالية مناظرة، أي مشاعر العزلة والوحدة،والفض، وفقدان الأنا، إلخ.[4]

تجليات الاغتراب في شخصيات الرواية :

أ/ الاغتراب وفقدان بوصلة الهوية في شخصية (ميمي) ، فهي لا تنتمي لمجتمع الأم، ولا لمجتمع الأب، فهويتها هجين ضائعة بين انفتاح المجتمع الغربي، وذاك الانغلاق الصارم من المجتمع الشرق في شخصية درويش التي شكلت وعيها، فتشكلت تلك الشخصية الفاقدة للثقة القلقة التواقة للتغير، فهي تقف في منتف المسافة من كل شي، تريدها الأم أن تقيم علاقات خارج اطار مؤسسة الزواج، وهو

أمر بديهي وفق قيم الأم ولا حرج فيه، بينما درويش يرفض تلك العلاقات خارج تلك المؤسسة، تطل عيه تلك القيم في عقله الباطن وتتهمه بالدياثة، وهي بذلك تجسد صراع الحضارتين في أبهى صوره، تقول الرواية:(نورا شولز تبدو اليوم أكثر سعادة من أي وقت مضى في حياتها، فقد وجدت ابنتها ميمي أخيراً صديقاً ein freund ليس لأن ميمي ليست جميلة، ولكنها كانت غير اجتماعية ودائماً ما يغمرها إحساس بالوحدة، أو أنها هي التي تجد نفسها في الوحدة، وكلما تقرب منها شاب ارتبكت وعملت على الابتعاد عنه بقدر الامكان، وقد تسمعه بعض كلمات غير لائقات أيضاً)([5]).

ب/ الاغتراب النفسي :

1. نورا شولز) تحيلنا تلك الشخصية إلى غربة الشخص الذاتية والنفسية في (المجتمع الغربي، رغم مظاهر الحضارة والرقي التي يسر الناظرين بريق جمالها المادي، لكن تلك القشور المادية تنطوي على زيف ومعاناة تتمثل في غربة الفتاة النفسية وانفصالها عن المجتمع ككل بل الأدهى والأمر من ذلك نقض عرى الأسرة عروة عروة، وتمزيق نسيجها الاجتماعي، عبر تلك العلاقة غير السوية على الاطلاق، وربما ساوت في دناءتها وانحطاطها درجة البهيمية الحيوانية، فأي قصة تلك التي فاجأت بها درويش في ليلة زفافها، وهل هناك قصة رعب أكثر من ذلك؟، (قالت بلسان ثقيل" لقد انتهينا من حكايات شهرزاد" وأنا لدي حكاية إذا لم تحكها لك أمي، فسأحكيها لك أنا بالتفصيل، لا بأس حتى إذا قصتها لك امي فسأقصها أنا أيضاً عليك، لدي رغبة أن أحكيها لك هل تسمعني؟ إنها حكاية مرعبة فعلاً، حكاية أب يغتصب ابنته، وعندما عرفت الأم لم تفعل شيئاً، حدثت هذه الحكاية لبنت تعرفها أمي وأعرفها انا جيداً، كانت تقيم معنا منذ ان ولدت وجدتها معنا،.. وبدأنا بتلك الحكاية المرعبة ليلتنا الأولى).[6]
2. شخصية والد نورا شولز:

أثرت الحرب على نفسيته كان يعتقد أنه إما قاتل أو مقتول، لذلك تشكلت شخصية غير سوية؛جراء تلك الأهوال التي واجهها، وإلا كيف يجرؤ شخص متدين يؤمن بوصايا موسى العشر، على تلك الفعلة الشنعاء غير الأخلاقية؟ وفقاً لنصيحة ورأي الراعي الاجتماعي تم اجهاض الجنين،(لقد صنعت منه الحرب مسخاً).[7]

ج/ محاولة طمس الماضي والاستدارة له، بهويته واغترابه وتكوين وعي وهوية جديدين، شخصية : (دروريش/ هاينرش،Heinrich): تقول الرواية: (فلقد دخل اوروبا وعليه أن لا يخرج منها إلا وفي جيب سترته جواز وجنسية من أحد الدول الأوربية المحترمة فالحياة واحدة، ويريد أن يعيشها كشخص مقدر ومحترم ، يقصد كإنسان ليس من همومه لقمة العيش، وهذا الحق في بلاد يحكمها لصوص متطرفون دينياً لا يمكن أن يتحقق، وهو غير معني تماماً بتحقيق تلك الشروط في بلده).[8]

أراد درويش أن ينتف ريش ماضيه وهويته العربية والمسلمة، ومن ثم أن ينبت له زغب جديد ينتمي لتلك الحضارة المنشودة، (إلا أن درويشا أو هاينرش منذ أن قدم إلى النمسا في تسعينيات القرن الماضي قد قطع علاقته بكل ما هو مسلم وعربي)، (لكنه أيضاً كان يفضل أن يبدأ حياته من جديد، من دون تاريخ، تماماً من دون أي تاريخ)، ([9])،لكن محاولات طمس الهوية ذهبت أدراج الرياح وإن في مرحلة متأخرة من حياته، حين أججت حادثة العلاقة غير الشرعية دواخله: (همست له بصوت أكثر هدوءً ونعومة: قد تكون ليلة ابنتنا الأولى! قال كمن لدغته عقرب: ماذا تقصدين بليلتها الأولى؟!)[10]، وثار بركان تلك الفطرة السليمة في عقله الباطن التي تعتبره ديوثاً، ومن ثم بدأت تتمظهر تلك الشخصية التي حاول وأدها:(قال لها: أنا لا أهتم بمواضيع الديانات كثيراً، قالت له في إصرار وهي تنظر في عينيه: بل تهتم)،(سألته سؤالاً مفاجئاً ما كان يتوقعه: هل أنت مازلت مسلماً؟ قال لها مبتسماً: نعم).[11]

تبرز قضية صراع الهوية كأحد القضايا التي تناولها الروائي عبدالعزيز بركة ساكن في رواية الأرض الخراب، ويتجلى ذلك في شخصية درويش، سوداني الجنسية .. لام مصرية وأب سوداني، موزع الانتماء بين مصر والسودان، بل لايشعر بذلك الانتماء في مصر حين ينعت ب(الأجنبي)، واللون الأصفر في السودان يشعره باللاانتماء، (ولو أنه كان هجيناً مربكاً في كثير من الأحيان خاصة عندما يأتي سؤال الهوية)[12] وكأن الراوي ينبه ايحاءاً إلى أهمية معالجة صراع الهوية في واقعنا السوداني، كمستنقع تفقس فيه جراثيم الصراع والحروب، خرج درويش يبحث عن هوية جديدة في بلاد تموت من البرد حيتنانها، ينشد فردوس هويته المفقود، يجد نفسه مجدداً فاقداً للهوية كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

د/ الغربة الروحية والبحث عن الإله المجهول في شخصية توني:

قال توني بهدوء:(أريد أن أقول لك إن المسألة سهلة جداً، أنا أريد أن أكون شيئاً جديداً في حياتي، شيء غير تقليدي، مللت أن اكون أنا في كل مرة نفس الشخص ذاته؛ الحياة هنا مملة وهذا هو الذي جعلني أحب ميمي أكثر، فهي مختلفة على الأقل في شكلها، أنا وميمي نريد ان نصبح مسلمين).[13]

البحث عن الإله المجهول او الضائع ومحاولة اكتشافه؛ في ظل الحضارة المادية التي تسلم نفسها لحرية الغريزة والانعتاق من قيود السماء المحرفة، ومحاولة الوصول إلى صيغ جديدة تلغي وسائط الرسل والأنبياء، صيغ تكون أكثر تصالحاً مع الذات ومع نمط الحياة الغربي، (لكن مع ذلك توني لا يكره العرب) فهو مختلف حتى في الصورة التي يحملها من يعتنقون ديانته في الصورة النمطية للعرب(قالت وهي تمسك توني من يده بحنية بالغة: توني أسلم يابوي).[14]

وكأن توني يدور في حلقة مفرغة، حين اكتشف على لسان أبيه أن ميمي كوشية، لكن لا يهم طالما وجد الآخر المختلف، وبعض التغيير الذي سيسهم في كسر حاجز الملل (ولكن عندما رآها أبي قال: توني اعبدها! إنها إله نوبي أرسل إليك من أنهار كوش حيث لا تحتسب).[15]

الخاتمة:

بطل الرواية درويش يبدو في هذا الرواية أعجز من أن يخرج من هذا الخراب ، بعد كل ما عاناه من اغترابه الذاتي والنفسي والمكاني، نتيجة تلك الهزائم المتكررة في حياته، وكان ك(كش ملك) في لعبة الشطرنج، غير قادر على القيام بأي حركة إضافية أو البقاء في تلك الخانة، تلك الخانة التي تواطأ على وضعه فيها الكاتب بمعاونة الراوي العليم وبعض شخصيات الرواية، وكان المتلقي شريكاً في نسج خيوط الخاتمة المأساوية، والنتيجة واحدة سواءً سعى درويش إليها(انتحاراً)، أو أرغم عليها (دفعه بواسطة نورا).

عقل درويش الباطن يأبى أن يتنازل عن تلك الثوابت الراسخة التي لا تتزحزح، تلك الشخصية الشرقية العربية المسلمة، التي لها خطوطها الحمراء في علاقتها بالآخر وعلاقة الآخر بها، يعود عقله الباطن إلى تعزيز انتمائه للاسرة والقبيلة، حين يستدعي شخصية ابن عمه ويلجأ إليه في أحلام اليقظة؛ ليكون سنداً وسكينة للنفس يشاوره فيما أهمه، ويعود إلى ذلك الانتماء الذي يعزز ويرسخ الثقافة الذكورية واحتفائها بالبنين دون البنات(لو أنجبت ولداً بدلاً من هذه البنت، لما واجهتني أي مشاكل" فالرجل في الاخر رجل" والبنت إما أدخلتك الجنة أو حشرتك في الجحيم، وبنتي من ذلك النوع الأخير، أنجبتها من أجل أن تشيعني لجحيم خاص بآباء الزانيات، ولكن لست أنا ممن يحشر هناك، سادافع عنها لآخر لحظة هي ابنتي رغم أنف القانون، أليست هي ابنتي؟).[16]

في نهاية المطاف كان حلم التعايش مع تلك الحضارة يتبدد وهو ما يُؤكّد العجز عن ايجاد أي حلّ آخر،وهي رفضه لتلك الحضارة وهي أيضاً لفظته، وهو ما أوصلهما لمرحلة الصدام والمواجهة في نهاية الأمر حين يتعلق الأمر بالشرف(ما عاد ذلك الشخص الآتي من مكان آخر، لم يتبق منه في الظاهر سوى لون بشرته السوداء وشعره الخشن، ولم تظهر شخصيته الاسلامية العربية الأخرى إلا حينما أصبح عليه أن يدفع الثمن جزء من لحمه ودمه والمقصود هنا ابنته، فكل ما هو بعيد عن الشرف يمكن التعايش معه).[17]

انحياز نورا شولز وميمي هانريش للثقافة الغربية(ثقافة توني)، ولفظ تلك الثقافة الدخيلة(ثقافة درويش)، وسؤال يبقى مفتوحاً، هل قتل درويش السيدة العجوز: الكفر بكل قيم الغرب الزائفة التي وجد درويش نفسه فيها، والشعور بالغربة الالنفسية والذاتية من جديد (بحق الجحيم ماذا يفعلان في هذه اللحظة في البيت؟ أظنني شممت شيئاً عندما كان يتحدث معي توني، أظنني شممته ينفح عن ميمي بالذات، أهي رائحة فراش؟ تباً تباً، سحقاً للقانون الذي لا يميز بين الأخلاق والحقوق الأبوية في الحماية والرعاية والتربية القويمة، وفقاً لمعتقدات الأب، سحقاً لأوروبا كلها عليها اللعنة وعلي وعلى العالم).[18]

يقظة عقل درويش الباطن الذكوري؛ الذي تشكل وعيه في بيئة ترى الشرف مقدساً حين يتعلق الأمر بالأنثى(إن شرف الأسرة يغوص عميقاً في الوحل، الفضيحة التي سوف لا يغسلها غير الدم، قال جملة واحدة سريعة وكأنه يخاطب العالم كله الذي يبحلق فيه الآن، وينتظر رد فعل شجاعاً وتاريخياً منه هو بالذات، وفي هذه اللحظة؛ سندفنهما أحياء).[19]

ومهما يكن من أمر، فالشكر لرواية عبد العزيز بركة ساكن(الأرض الخراب)، التي فتحت لنا كوة في جدار الآخر، وعرت تجليات الاغتراب النفسي والمكاني في شخصية درويش وفي الشخصيات المنتمية لذلك الاخر من خلال رؤية مستبصرة واعية، تعيد تشكيل أفق ووعي جديدين للمتلقي، وربما زلزلة بعض قناعاته الراسخة ونظرته للآخر، رواية تستحقّ القراءة والتأمل، وتحتاج إلى قارئ حصيف ذي ثقافة واسعة لكي يستطيع سبر أغوارها وربط خيوطها بخيوط الواقع العربي المزري وغربة انسانه الذاتية و النفسية، في ظل الحروب والفقر والجهل التي تفرض سطوة بؤسها عليه، وجدب أرضه الخراب التي لا يمكن لأحد أن يتكهن متى يأتي أوان خصبها؟!

د.عمر عباس الطيب

---

[1] - رواية ابراهيم درغوثي – الدراويش يعودون إلى المنفى ص (٥٢)

.

[2] - الأرض الخراب ص (٩٣).

[3] - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية- أبي نصر اسماعيل بن حماد الجوهري- ط ١ دار الحديث القاهرة ٢٠٠٩- ص (٨٤٠).

[4] - التصحر النفسي والوقاية منه دراسات وبحوث في الانثروبولوجيا السيكولوجية- د. يسري دعيبس- ط١ دار البيطاش ٢٠٠٦.

[5] - رواية الأرض الخراب ص (١٢).

[6] الأرض الخراب ص (٩٤).

[7] رواية الأرض الخراب ص(٧٤).

[8] الأرض الخراب ص(٧٨).

[9] - رواية الأرض الخراب ص (١٣).

[10] الأرض الخراب ص(١٧).

[11] - رواية الأرض الخراب ص (١٥).

[12] الأرض الخراب ص (٥٩).

[13] رواية الأرض الخراب ص(٩٧).

[14] الأرض الخراب ص(٩٦).

[15] رواية الأرض الخراب ص (١١٣).

[16] رواية الأرض الخراب ص (١٠٧).

[17] رواية الأرض الخراب ص(٩٨).

[18] رواية الأرض الخراب ص(١٠٧).

[19] رواية الأرض الخراب ص(٢١).